متى صار المصريون عبيداً بإرادتهم؟

13 يوليو 2025

سياسة وتاريخ

4 دقيقة قراءة

www.saudieinstein.com

متى صار المصريون عبيداً بإرادتهم؟

ثمة شعوب تُقهر فتثور، وأخرى تُقهر فتصمت، وثالثة - وهي الأندر والأغرب - تُقهر فتصفق للقاهر. المصريون من النوع الثالث.

والحال أن تاريخ مصر هو تاريخ كائن عنيد في وجوده، سائل في هويته، يتقمص أرواح غزاته بحماس المريد الصوفي. شعب حول القهر إلى طقس عبادة، والخضوع إلى فن من فنون البقاء.

بيد أن فهم هذه الظاهرة يستدعي المقارنة. حين اجتاح العرب بلاد فارس، اعتنق الفرس الإسلام لكنهم احتفظوا بلغتهم، وأعادوا كتابة أساطيرهم في "الشاهنامة"، وحولوا التشيع إلى قومية دينية. ظلوا فُرساً حتى وهم يصلون بالعربية. أما اليهود، فألفا عام بلا أرض، مطاردون

من محرقة إلى مذبحة، ومع ذلك ظلوا يهمسون: "السنة القادمة في أورشليم". لم يصيروا بولنديين في وارسو ولا مغاربة في فاس. ظلوا يهوداً، عنيدين كالصخر ما يميز المصريين هو ما سماه المفكرون "القابلية للاستعباد"، لكن بتحوير مصري: ليست قابلية، بل رغبة... بل عشق للعبودية حد التماهي مع السيد.

حين قتل كمبيز الفارسي إله المصريين المقدس، لم يحركوا ساكناً. لكن حين حاول ملك يوناني تدنيس معبد اليهود، ثاروا رغم ضعفهم. الفرق؟ شعب يقبل الإهانة، وآخر يموت دونها.

الإسكندر فهم السر: لم يحطم الآلهة بل احتضنها. والمصريون؟ لم يقبلوا فحسب، بل صاروا كهنة الإله الجديد. تعلموا اليونانية حتى

صـاروا يحلمـون بهـا. وحيـن تتغيـر لغـة الأحلام، تكون الروح قد استُعمرت.

ومـع العـرب؟ الأمـر أشـد غرابـة. لـم يكتـف المصريون بقبول الإسلام، بل تخلوا عن لغتهم القبطية طواعية. القبطية التي نجت من الفرس واليونـان والرومـان، مـاتت أمـام العربيـة دون مقاومـة تُـذكر. بعـد ثلاثـة قـرون فقـط، صـار المصريون يفكرون ويحلمون ويشتمون بالعربية!

ثم جاء الفاطميون فحولوهم إلى الإسماعيلية (الشيعية المتطرفة) بقرار سياسي. وحين جاء صلاح الـدين الأيـوبي، عـادوا سُـنة بقـرار آخـر. لا ثـورات، لا حـروب أهليـة، لا جـدل فقهـي. مجـرد "تغيير قبلة" إداري، كمن يغير قميصه.

المصريون طوروا "التماهي مع المعتدي" إلى

فـن: علمـوا البطالمـة كيـف يكونـون فراعنـة، وحولوا المماليك العبيد إلى سلاطين مقدسين. نابليون احتل مصر ثلاث سنوات، لكنه ترك أثراً يفوق قروناً!

السـر فـي كوكتيـل "الصوفيـة" و "الجبريـة المصـرية" بنيـة نفسـية عميقـة: "اللـي يحصـل يحصل"، "ربنا يسهل". استسلام وجودي يحول الهزيمة إلى قدر، والذل إلى حكمة

قارن بالأتراك: أتاتورك قلبهم رأساً على عقب، لكن لم يستطع إلغاء كبرياءهم. أما في مصر، فحتـى ثـوراتهم الفكريـة مسـتوردة: ناصـر مـن موسـكو، السـادات مـن واشنطـن، الإخـوان مـن كراتشي.

المصـري يفخـر بـ"أم الـدنيا" ويحلـم بـالهجرة،

يتغنى بالفراعنة ويجهل الهيروغليفية، يردد "مصر فوق الجميع" ثم يسأل الأجنبي: "إيه رأيك فينا؟"

الشعوب التي نهضت - اليابان، كوريا، الصين - عرفت ذاتها أولاً. تعلمت دون أن تذوب، اقتبست دون أن تتماهى. يقول المثل المصري: "اللي يتجوز أمي أقول له يا عمي".

في بضع كلمات، تاريخ أمة: الأرض تُنتهك، والابن يمنح المنتهِك لقب القرابة. ليس جبناً، بل تطبيع مع الاغتصاب حد جعله عائلة.

بينما تصرخ القدس في شعر مظفر النواب رافضة اغتصابها، تحول مصر كل اغتصاب إلى عُرس، وكل غازٍ إلى عريس.